ما منهجية التاريخ الإسلامي ؟

د. عبد العزيز رأس مال

مدير الثقافة الإسلامية

تمهيد :

يقول الجَبْرتي:« اعلم أن التاريخ علم يُبحث فيه عن معرفة أحوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وصنائعهم وأنسابهم ووفياتهم، وموضوعه أحوال الأشخاص الماضية والعلماء والحكماء والشعراء والملوك والسلاطين وغيرهم والغرض منه الوقوف على الأحوال الماضية من حيث هي وكيف كانت، وفائدته العبرة بتلك الأحوال والتنصُّح بها»..(شرارة: المسألة التاريخية).

هذا النص يحيلنا إلى الرسوم والأحوال والعادات، وهو يدرج هاته العناصر على امتداد خط موجه من البدايات (الأنساب) إلى النهايات (الوفيات)، وهو يحرر الحادثة التاريخية، وكيفية حدوثها، وكذلك المقارنة بين الماضي والحاضر في كون التاريخ الإسلامي ليس إلا معيدًا لنفسه ولكن بصورة مختلفة من حيث العبرة والدلالة والرمز.

1 ـ التاريخ في التصنيفات الإسلامية للعلوم :

التاريخ في التصنيفات إما غائبا، وذلك اقتداء بالتقسيم الأرسطي واليوناني، وإما ثانويا كمساعد للعلوم الدينية، وقد قسم المسلمون العلوم إلى علوم أجنبية وعلوم أصلية:

فأما العلوم الأجنبية، فتصنف من ضمنها الفلسفة.. وأما العلوم الأصلية فهي العلم الإسلامي الحق، وهي ما يسميها ابن خلدون : العلوم النقلية.

إخوان الصفا أثبتوا علم التاريخ بين العلوم الرياضية (التأريخ dates، ربط تاريخ البشر بعالم السماء والأفلاك وقراءاتها) وفي العلوم الشرعية سموه تارة «علم السير والأخبار» وتارة أخرى «علم الروايات والأخبار»، وأثبتوا هذا العلم بين العلوم العربية الإسلامية الأصلية.

نفس الأمر بالنسبة **لمحمد بن عبد الله** من خوارزم، الرياضي المشهور الذي ألف في 679 م «مفاتيح العلوم» الذي أدخل علم التاريخ في العلوم الشرعية، وفهرست ابن النديم الذي وضع 10 مقالات في العلوم الأصلية، الثالثة منها مختصة بعلم التاريخ (الأخبار والسير).

أما في **رسالة ابن حزم**، فيقول عن التاريخ بأنه علم نافع، وأن أصح التواريخ عندنا تاريخ الأمة الإسلامية؛ وحتى تاريخ اليهود يقال أن أغلبه صادق، ولو أن في بعضه «دخل»؛ وتاريخ الروم (اليونان والرومان) لا يصدق إلا ابتداء من الإسكندر؛ أما تاريخ الهنود والصينيين فعلى الرغم من أنهم عرفوا علما مزدهرا فإن كتبهم «لم تبلغنا»، فهو تاريخ غير معروف، كما هو الشأن فيما يتعلق بتاريخ القبط ـ قدماء المصريين ـ واليمنيين والسريان. أما شعوب الترك وأمم الشمال والزنوج فلا تواريخ لديهم لأنه لا كتابة لديهم ولا علم، وهذا التقسيم شائع ومنتظر عند العلماء المسلمين بين الأمم المتحضرة وغير المتحضرة.. فالتاريخ الإسلامي إذن هو أصدق التواريخ عند هذا العالم القرطبي، وهو موقف مفهوم إذا قيس بمدى توفر الوثائق.

أما أبو حامد الغزالي، فيرى أن هنالك علوما مباحة كالتاريخ، ويسميه «تواريخ

الأخبار» ـ علم غير شرعي ـ؛ وعلم بسيرة النبي وأخبار أصحابه ويسميه علم الأخبار والاثار ـ علم شرعي ـ .

2ـ ابن خلدون ومنهجية التاريخ :

يعبر عنه بأنه «أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعد في علومها خليق»، فهو يخرجه من العلوم الشرعية ليدخله في العلوم الفلسفية «الحكمية» ، ودعا إلى دراسة التاريخ بمنهج عقلاني من خلال نقد منهج الإسناد (تمحيص الخبر من خلال طبيعة إسناده، مقارنة صدق الخبر بطبائع العمران المتواجدة في عصره) ، ومن ثم فإن نقد الإسناد هو في حد ذاته نقد التقليد الذي وقع فيه الطبري والمسعودي، فنسيت أصول الأخبار، ولم تعد هنالك حاجة إلى معاودة البحث عنها.

لكن تناقل الخطأ يشتد تفاقما حين يقع التاريخ ـ تبعا لثقافة برمتها ـ في التقليد؛ أي أنماط يحللها إلى مختصرات وملخصات، أي نموذج للتعليم الديني الذي يهيمن على نماذج الثقافة الواقعة في التقليد. لكن نقد التاريخ عند بن خلدون كان بلغة أصولية ـ علم الأصول ـ وهو الذي أراد لنقده أن يكون جذريا.

يقول بن خلدون: «ومن هذا الباب ما يسلكه المؤرخون عند ذكر الدول ونسق ملوكها، فيذكرون اسمه ونسبه وأباه وأمه ونساءه ولقبه وخاتمه وقاضيه وحاجبه ووزيره، كل ذلك تقليد لمؤرخي الدولتين من غير تفطن لمقاصدهم، والمؤرخون لذلك العهد كانوا يضعون تواريخهم لأهل الدولة، وأبناؤها متشوقون إلى سير أسلافهم ومعرفة أحوالهم ليقتفوا آثارهم...» (المقدمة ص 31 ـ 32).

وهنا يسلك بن خلدون كما يقول أومليل مسلكا مختلفا عن علماء التاريخ الآخرين، فهو لايكتب لأهل السلطة من خلال الحوادث الفردية، ولا يكتب

للمجتمع المخملي، بل ما يهمه هو سير الأسلاف، ومعرفة أحواهم ـ أي أوضاعهم الحياتية ـ، أي ينبغي إرجاع التاريخ إلى وقائع التاريخ، أما اللجوء إلى مصطلحات العلم الديني ـ الأصول ـ، فهي من أجل إحداث فصل منهجي: وهو إرجاع التاريخ إلى موقعه الحقيقي(قوانين التاريخ)، باختار إلغاء الانفصام بين التاريخ والخطاب التاريخي.

حكم بن خلدون على عصره، كان من خلال عبارات قوية وموحية: « وأما لهذا العهد، وهو اخر المائة الثامنة، فقد انقلب أحوال المغرب الذي نحن نشاهدوه، وتبدلت بالجملة.. وما نزل من الطاعون الجارف الذي تحيف الأمم، وذهب بأهل الجيل، وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها، وانتقص عمران الأرض بانتقاص البشر» , لذلك فهو يشير إلى تبدل كوني كبير من الناحية السكانية ومن الناحية العمرانية، وهذا ما لم يعره كتاب تاريخ الملوك أهميته الخاصة.

من الناحية المنهجية فإن ما خلا تاريخ العرب والبربر، جمعه من مكتبات القاهرة ومكة ودمشق، وكذا الاتصال بالتجار والموظفين ورجال الدولة وهذا الجمع للمعطيات ساعده بأن يكتب عن تاريخ المشرق، ويكمل ما كان ناقصا.

من ناحية أخرى ـ كما يقول أومليل ـ فإن دراسة تطور المشروع التاريخي لابن خلدون، نشأته ونموه، ينبغي أن تسبق كل حديث عن فلسفته التاريخية.

منهجيا ينبغي أن نقرأ المقدمة من خلال كتاب التاريخ ، أي من خلال العبر؛ فكتاب العبر يعرضُ التاريخ، كما كان يعرفه «ابن خلدون», والذي ينبغي تحديد حقله.

المقدمة ليست في نهاية الأمر سوى تنظير ينبغي أن يستخرج من قراءة منهجية لكتاب «العبر».

يعالج التواريخ الأخرى بشرطين اثنين: ـ

* **أولهما:** أن كل تاريخ خاص لابد له أن يتموضع بالنسبة للتاريخ الكوني، وهي أن التاريخ هو ذكر «للأخبار الخاصة بكل عصر أو جيل، وأما ذكر الأحوال العامة للآفاق والأجيال والأعصار، فهو أس للمؤرخ تنبني عليه أكثر مقاصده» (المقدمة ص 32).

* **ثانيهما:** أما التواريخ المعاصرة لتاريخ العرب و البربر (لفظ معاصرة نجدها في ص 6)، فهي تواريخ الفرس وبني إسرائيل والمسيحيين، وذلك في الجيل الثاني للعرب وهو العرب المستعربة. أما جيل الترك فقد عالجه باتصال مع تاريخ الجيل الرابع، أي العرب دعاة الإسلام ومؤسسي امبراطوريته.

ومن هنا فإن النظرية الخلدونية تعتمد على «محور العصبية»، فتاريخه هو تاريخ الشعوب ذات البنية القبلية، أي الشعوب التي تعتمد على العصبية في تغيرها من حال إلى حال...

يرجع أيضا للكتب الدينية (التوراة)، للتعرف على بدء الخليقة، كما أن الطوفان ليس كونيا حيث تجهله بعض الأمم مثل الهنود والفرس، كما يعتمد على الوصف الجغرافي للمناطق..

3ـ اهتمام المؤرخ في التاريخ الإسلامي :

المؤرخ المسلم محكوم عليه بأن يدمج بين الإلتزام والتجرد العلمي، فالخيط الذي يفصل بينهما خيط رفيع، لايظهر إلا إذا تحول الالتزام إلى تعصب أعمى وتحول التجرد إلى فكر مجرد خام.

لابد أن نشير إلى أن الغرور الذي أصاب الفكر التاريخي (تبجيل الذات

والنرجسية التاريخية)، هو الذي كان وراء اندحار هذا الفكر وفقدانه لمصداقيته حينما تعلق الأمر بالمناظرات الحضارية.

هنالك مدرستين في التفكير :

* مدرسة نطلق عليها الإنتقائية، يتم استعراض الفكر تارة بدقة وشمول، وتارة بسطحية ساذجة، فهي كالذي يتسوق في سوق الأفكار، فيستسيغ الفكرة من هنا، ويدلل عليها على أنها إبداع فكري وانتصار حضاري، وغالبا ما نجدها مفتاحا لنفسية المؤرخ أكثر من كونها فهما لفكر هذا الأخير.

* مدرسة ثانية يتم فيها قسر الروايات التاريخية والأحداث والسير للمنهجية الدينية(من حيث الإسناد والتواتر)مثل القرآن الكريم والحديث الشريف، وهو خطأ منهجي مازالت لحد الآن ترتكبه النخبة من مؤرخين وغيرهم.. وكأن المجتمع اليوم في عصوره الذهبية،وهو في الحقيقة يبحث عن مخرج من أزمة خانقة على كل المستويات.

يبين لنا طريف الخالدي إلى أننا بحاجة إلى **الهداية**، وأن نبتعد عن الصورة التاريخية. ونلتفت إلى ما نجده في التاريخ من الدروس والعبر، فأوجه الفكر الحيوية كانت بالمناظرة بين العلماء المسلمين وغير المسلمين، وبين المسلمين أنفسهم، ونرى أن إعادة النظر في التفكير الديني لم يكن مختصا بحضارتنا وإنما عرفته الحضارات الأخرى.

إن فهم القرآن من خلال الأحداث التاريخية والأديان المقارنة، هو الذي يسمح لنا بتملك أدوات البحث، والتعمق في المفاهيم، وليس العكس أي فهم الأحداث التاريخية من خلال القران.

نفس الأمر، فيما يتعلق بالهالة التي نحيط بها مؤرخينا مثل بن خلدون وبن

الأثير والمقريزي وصاعد الأندلسي وغيرهم... ينبغي فهم أفكارهم ورواياتهم من الداخل، أي فهمها في إطار التفاعل بين البيئة التاريخية والفكر، وهو ما يهمنا في الحاضر.

يقول «رانكة» كل جيل من الأجيال يتساوى مع الجيل الآخر في مسافته الروحية من اللّه؛ وهذه عبرة من عبر تاريخ الفكر الإسلامي، إذ تتابعت في صدر الإسلام أجيال من العلماء حاول كل جيل إعادة تقييم التراث بكامله، فكان أن نتج عن ذلك زخم فكري حضاري هام.

المؤرخ عندنا يستلهم التاريخ لا لاستشراف المستقبل، بل للترويح عن النفس في بهاء الماضي وعظمته، وهذا ما نقوم به للأسف الشديد، لتعويض العجز والقصور الفكري.

المشكلة الثانية التي يعاني منها التأريخ الإسلامي هو أنه تاريخ نخبوي، وبقدر ما يؤرخ لطبقة صغيرة من العلماء التي تنحو منحى ضيقا، بقدر ما يقصي حقائق حضارية عامة كانت بذاتها بذور فناء الثقافة الإسلامية التاريخية، وانحطاط الفكر الإبداعي.

4ـ المناهج المتبعة عند العلماء المسلمين :

إن منهجية التجريح والتعديل، تعتبر هي المهيمنة في مناهج البحث، مارسها المؤلفون، وبما أن العديد منهم كان من أهل الحديث، فقد استعملوها..

فالذهبي، وضع ميزان الإعتدال الذي يجمع فيه كل أصناف رجال السند من الثقاة إلى الكذبة، فالبينة تقع على الجارح، وهذا يفيد من لا يوجد بحقهم جرح، وقد أخذ بن حجر العسقلاني بهذا الرأي.

أما **السخاوي**، فيشير إلى أن نواقص الرجال هي ضرب من الغيبة المذمومة، وهو بذلك يختلف عن الذهبي والعسقلاني المفضلين للتعديل على الجرح.

البوريني، لايذكر إلا ما كان محمودا عند كل إنسان، إبتغاء الثواب خوفا من يوم الحساب.

الغزي، حذف كل ما من شأنه الإساءة إلى البشر، ينسبها إلى نفسه بدل الراوي.

السبكي، طور منهج النقد هذا، وأخذ في البحث عن الخصائص التي ينبغي أن يتحلى بها المؤرخ، المؤرخ ينبغي أن يكون صادقا، وفيا في ذكر مصادره، يعرف صاحب الترجمة إن أمكن، بليغا، قادرا على استعادة سيرة المترجم في ذهنه ونقلها في صورة بعيدة عن الأهواء الشخصية..

هذه الآراء لم تلق الصدى، كما أشرنا، لمن تبعهم من المؤلفين الذين عادوا إلى أساليب المحاكاة غير المحببة بين مناهج التاريخ والسير ومناهج الحديث.

الخلاصة: ـ الذهبي وبن حجر اتبعا أسلوبا وسطا، السخاوي والسيوطي تميزا بالجرح، البوريني والغزي قدما التعديل وحذفا الجرح...

من هنا يبدو أن النزعة في الأول كانت نحو الإنتقاء والتمييز عند بن خلكان، ثم توسعت إلى الشمولية بفضل الذهبي والصفدي مؤرخ عصر المماليك، ثم عادت إلى الإنتقاء في العهد العثماني حيث أصبحت طبقة العلماء مميزة وذات دور سياسي.

أشار حمزة الإصفهاني على لسان أبي معشر البلخي إلى **«الفساد»** الذي يعتري التواريخ، في نقلها من كتاب إلى كتاب، ومن لسان إلى لسان، (افتراءات المؤرخين اليهود في السنين التي بين آدم ونوح؛ وعن الأنبياء والأمم، والمؤرخون الفرس عن أصل ملكهم من أول الدهر إلى زواله)؛ ومن ذلك اضطراب البيروني في

الإختلافات التي وجدها في المصادر التي اعتمدها للتثبت من المعارف التاريخية: أما أصحاب التواريخ، فكانوا حريصين على ذكر المصادر، فالسبكي الأب كان يحرص على أن يذكر المؤرخون المصادر في كل خبر تاريخي.

خطط **المقريزي** ، لها مصادر ثلاثة: - * المصنفات الأدبية* المعلومات التي جمعها العلماء المعاصرين له * المعلومات المبنية على اختياره الشخصي ومشاهداته.

5- أين نحن من المعرفة التاريخية؟

للأسف فإن علم المناهج الحالي لم يؤدي إلا إلى عزل التاريخ عن العلم الموسوعي، فلا توجد حقيقة واقعة تاريخية.. التاريخ هو نتيجة للجهد في معنى خلاق، يدعم المؤرخ أو الذات العارفة بين الماضي الذي يستدعيه والحاضر الذي يمتلكه، وذلك بالإلحاح على المؤرخ لإتقان التاريخ؛ ومن ثم يرى «جالبريث»: «لأفرض أن التاريخ هو الماضي، إنه أبعد كثيرا مما نعرفه، أو بالأحرى هو بالمقياس الذي نعرف فيه هذا الماضي»..

التاريخ هو كفاح الفكر، مغامرة مثل كل الغزوات والحروب البشرية، لايعرف إلا الإنتصارات الجزئية، تتناسب مع الرغبة الرئيسية، كما في أعماق النفس الإنسانية المحيرة، يعود منها بإحساس حاد عن إمكانياته، عن ضعفه، عن خضوعه.

لاتنسى أنك لست إلا إنسانا، هذا ليس اعتراف بالعجز واليأس، بقدر ماهو يعبر على أن عمل المؤرخ شاق يستلزم جهدا ومثابرة، ولكن داخل حدوده خصب بالتأكيد.

في موسوعة **«لانجلوا ـ سيتيوبوس»** نجد في أول السطر «يجري تحري التاريخ بوثائق» وفي نهاية الكتاب «ليس التاريخ إلا الممارسة بالوثائق»..

يقال في مثل أوروبي: ـ «لا تأكل الماعز إلا من عشبها المجاور لها حين تكون مربوطة»، إن المجاورة لمخزن البطاقات والمصادر المكتبية، وإيجاد تحفة جديدة بلا تبصر، ولا قصد التنقيب يمكن أن تبدو كالأصل لأعمال مشابهة (الحالة كثيرة الحدوث في التاريخ القديم حين تكون الوثائق نادرة، وكل مادة جديدة مرحب بها).

يرى «آكنون» بأنه ينبغي دراسة المشكلات لا العصور، وهو ما ذهب إليه كارل بوبر، فتاريخ الحضارة هو المهم Kulturgeschichte، ومن ثم ينبغي نقد الوثيقة بالطريقة التالية :

1 ـ نقد خارجي :

1 ـ نقد الشرعية : ـ هل هو نص الكاتب؟ الأصل أو نسخة مصورة؟ أو نسخةعن نسخ؟ هل هي صادقة أو منحولة؟ هل نقد تصحيحي (الجرح والتعديل)؛؟ إعادة تركيب الأصل المختفي؟!

2 ـ نقد المصدر: ـ الصفات الذاتية، طريقة المقابلة بشواهد أخرى، من الذي حرر الوثيقة؟ متى؟ أين؟ كيف؟ شكل الوثيقة؟ بأي سبل وصلت إلينا؟

2 ـ نقد داخلي:

1ـ نقد تفسير ماقاله الكاتب أو ما أراد قوله.

2 ـ نقد القابلية للتصديق، سلامة الطوية، الطاقة والإتقان.. تأكيد القيمة للشاهد:

هل أمكن للكاتب أن يَضلّ؟ هل تمكن اضطرارا من تضليلنا؟ هل هو شاهد مباشر «عياني» أو مستعيرا خبره من شهود آخرين؟ إذا كانت الوثيقة مفقودة، فلابد

من البحث عن مصادر أخرى «Quellenforschung»، بطريقة البحث البوليسي، والتي هي طريقة ناجعة للبحث التاريخي، فحص، نقد، تفسير، وفي نوع الدلالات (اثار الخطى، بصمات) والشواهد مجموعة؛ لكن هذا التاريخ ذو نمط أولي غير محكم تقريبا ببساطة الحادث الذي يراد إعادة تركيبه.

يقول ياقوت الحموي: ـ«المتصفح لكتاب أبصر بمواضع الخلل من مبتدىء تأليفه» أما الجاحظ فيقول : ـ «عقل المنشىء مشغول، وعقل المتصفح فارغ» وعلى هاتين العبارتين لياقوت الحموي، ولأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ أختتم ، والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته.

المـــراجـــع

1 ـ د. علي أومليل: «الخطاب التاريخي» دراسة لمنهجية إبن خلدون معهد الإنماء العربي ـ بيروت ـ

2 ـ طريف الخالدي: دراسات في تاريخ الفكر العربي الإسلامي دار الطليعة ط 2 بيروت 1977.

3 ـ أ ـ مارو : من المعرفة التاريخية ترجمة جمال بدران الهيئة العامة المصرية للتأليف والنشر ـ 1971 .

4 ـ فرونز روزنتال : مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي ـ ترجمة ـ د/ أنيس فريحة مراجعة د/ وليد عرفات.

5 ـ وضاح شرارة: المسألة التاريخية في الفكر العربي معهد النماء العربي ـ بيروت د.ت.